المشرق

المارتينيك

مصائبها وتاريخها

للاب مرقس بربيه اليسوعي احد اساتذة كلية القديس يوسف

كان ارباب الفراسة يسرّحون الابصار في عالم السياسة في غرّة الشهر المنصرم فلا يجدون في سمائه ما يعكّر صفو الهناء العامّ . فكانوا يستروحون نسمات السلم القريب بين بريطانية العظمى والبوير في جنوبي افريقية ويشاطرون الهولنديين افراحهم لما نالتهُ ملكتهم المحبوبة ولهلمين من الشفاء المرغوب ويحيُّون أعلام المسرّة والبهجة الخافقة في اسبانية وانكلترة ايذانًا باعياد تتويج ملكيهما الاعظمين . امّا فرنسة وروسيّة فكان السياسيُّون يهنّئونهما بقرب تجديد محالفتهما الضامنة لدولتين كبيرتين اسباب الانس والولاء . فبينما كان الجميع يؤملون انقشاع آخر سحابة تكدّر افق السياسة اذ سُمع هزيم رعد قاصف ارتجفت لصوتهِ الاجشّ فرائص الكون ألا وهو خبر المارتينيك ومصابها الجلل

فانّ بركانًا هائلًا تُشرف فوهتهُ على مدينة سان پيار كان يظنُّ الكل انّ نيرانهُ انطفأت منذ نصف قرن ثار بغتةً والتي في عنان الجوّ كمية بالغة من الدخان الكثيف والابخرة والرماد والحُمَم البركانيّة المصهورة فوقعت كلُّها من علُ على المدينة الرائعة قبل ذلك في بحبوحة الهناء فاحرقتها وطحنتها طحنًا في برهة بضع دقائق ولم تبقِ من مبانيها العامرة الّا آثارًا تشهد بما لحقها من سوء الدمار . امّا اهلها فلوى بهم الدهر ولم ينجُ منهم

غير افراد لا يتجاوزون عدد الاصابع فذهبوا فريسة حظهم المنكود في النيران المضطرمة وكان للبركان دويٌّ عظيم يُسمع على مسافات بعيدة يخال لسامعه انَّ الساعة قد قامت وأزف يوم الله الرهيب. ودام ذلك اياماً متوالية والرعب سائد على اهل الجزيرة حتى اضطروا ان يُخلوا عنها هاربين لا يلوون على الاعناق

ولكي يقف قرَّاؤنا على عظم الداهية التي ابتلى الله بها جزيرة المارتينيك عموماً وحاضرتها سان پيار خصوصاً اسرعنا الى تسطير هذه العجالة جمعنا فيها من الافادات التاريخيَّة والاوصاف الجغرافيَّة ما رأيناهُ جديراً بالتفات مواطنينا

*

انَّ جزيرة مارتينيك احدى جزائر الانتيل الشهيرة التي موقعها في الاوقيانوس الاتلنتيكي. وهي من جملة الانتيل الصغرى تمييزاً لها عن الانتيل الكبرى التي تشمل جزائر كوبا والجمانيك وجمهوريَّة هايتي وبرتوريكو وهي تُعرف ايضاً بجزائر كرائيب باسم سكَّانها الاولين. والانتيل الصغرى وافرة العدد تملكها اربع دول: فرنسة ولها جزيرتا غوادلوب والمارتينيك. ثم انكلترة ومن جزائرها سان ڤنسان وسنت لوسي ودومينيك وسان كريستوف. ثمَّ هولندة ثم الدنيمرك

امَّا المارتينيك فيحدُّها شمالاً جزيرة سنت لوسي وشمالاً غربياً جزيرتا غوادلوب وجزيرة دومينيك وموقعها من العرض الشمالي ١٤° ٢٦' اما طولها فهو ٦٣° ١٢' وتكسير مساحتها ٩٨٧ كيلومتراً مربعاً. وهي عبارة عن سلسلة جبال عالية تنقسم الى قسمين او شبهي جزيرة يجمع بينهما برزخ. والعناصر المتركبة منها هذه الجبال كلها بركانيَّة. واشهر هذه البراكين الجبل الاقرع الذي يبلغ ارتفاعهُ ١٦٥٠ متراً الَّا ان نيرانهُ الباطنيَّة كانت خامدةً منذ سنة ١٨٥١

وفي خلف هذه الجبال سواحل ذات هيئات جميلة منها صخريَّة عجيبة تنفذ فيها الجُوَن والخلجان ومنها ذات تربة خصبة تمتدُّ على مسافات بعيدة فيها البساتين الغنَّاء والغياض الدَّغلة وضروب الاشجار المثمرة كالموز والاناناس والعناب وانواع المزروعات لاسيَّما قصب السكر والتبغ والمانيوق والبنّ ولبنها شهرة مستفيضة. وكان لاهلها مقاطن عدلوا منذ سنين قليلة عن استغلالها وكذلك قد اهملوا ورع شجرة الكاكاو. وهواء جزيرة المارتينيك طيب معتدل الحرارة عند شواطئ البحر لهبوب الرياح المتواصلة. امَّا داخل

الجزيرة فانهُ شديد الحرارة وتغلب فيه على الاهلين الحمّى الصفراويّة التي تفتك بهم فتكًا ذريعًا لاسيّما بعد فصل الامطار في تموز وآب

وللمارتينيك والٍ عامّ يحكم عليها وهي تُقسم الى ايالتين فور دي فرانس وسان پيار وهما مدينتاها الكبيرتان. والاولى مركز الحكومة لها مرفأ واسع في مأمن من الرياح والانواء. امّا سان پيار فهي مركز التجارة ومورد الثروة تقدم اليها السفن من كل البلاد. وعدد سكّان الجزيرة اليوم نحو ١٨٠٠٠٠ منهم ١٠٠٠٠ اوروبّون بيض و ٥٠٠٠٠ خلاسيّون والباقون سودان كانوا سابقًا عبيدًا ثمّ حُرّرت رقابهم سنة ١٨٤٨

*

وكان اكتشاف هذه الجزيرة سنة ١٤٩٣ مرّ بها كريستوف كولُمب واصحابهُ يوم عيد القديس مرتينوس فدعاها باسمه مارتينيك الّا انهُ لم يتلبّث فيها بل تمّم مسيره الى بلاد اوسع منها. فبقيت منسيّة الى سنة ١٦٣٥ حيث نشر فوقها العلمَ الفرنسيّ بحّارة افرنسيّان اسمهما لوليف (L'Olive) ودوپلسي (Duplessis) وسار اليها والي جزيرة سان كريستوف پيار بلان (P. Belain) المعروف بسيور دينَنبوك (Sieur d'Esnambuc او Denambuc) وحاول استعمارها الّا ان سكّانها الهنود الكرائيب كانوا قومًا مناوير فتصدّوا للفرنسويين وقاتلوهم حتى أيسوا من غلبتهم فسالموهم وتوغّلوا جبال الجزيرة فعاشوا في غاباتها الكثيفة عشائر منفردةً يرتزقون بالصيد

وكانت جزيرة المارتينيك في اوّل الامر كملك خاصّ لشركة افرنسيّة تُدعى شركة الجزائر الاميركيّة ثم تولتها شركة أخرى تُدعى شركة الهند الغربيّ الى ان أُلحقت سنة ١٦٧٥ بأملاك دولة فرنسة وجُعلت سنة ١٧١٧ حاضرةً لجزائر الانتيل الفرنسيّة

وفي سنة ١٧٦٢ انتزعها الانكليز من ايدي فرنسة وملكوها الى سنة ١٧٨٣ فأُعيدت الى اصحابها وفقًا لمعاهدة ڤرسايل. ثمّ توالت الحروب بين الدولتين في تلك البحار واستولى الانكليز على جزيرة المارتينيك اربع مرّات حتى تقرّر ملكها لفرنسة في سنة ١٨١٨ فثبت فيها قدمها دون منازع ولم يعد الانكليز منذ ذاك الحين يطمحون اليها بالبصر

وللديانة الكاثوليكيّة في تاريخ استعمار جزيرة المارتينيك آثار طيّبة تنطق بفضل المرسلين الذين بشّروا فيها بالايمان. فانّ واليها دينسبوك رأى أن اقوى عامل على نجاح

هذه المستعمرة ان يدخلها المرسلون ليروّضوا طبـاع اهلها ويمتّنوا بشؤون المستعمرين الروحيّة . وكان الكردينال دي ريشليو عيّن لهذه الرسالة بعض افاضل الرهبان من ابناء القديس دومينيك فابحر اربعةٌ منهم لإنجاز هذا العمل الشريف سنة ١٦٣٥ لكنّ الظروف حالت دون رغبتهم فاجتازوا امام الجزيرة وتعبوا على ساحلها راية الصليب المقدس ثم واصلوا سيرهم الى جزيرة غوادلوب فتوطّنوها

واوّل من اسعده الحظ على بثّ الانوار الانجيليّة في تلك الجزيرة الآباء اليسوعيّون دخلوها سنة ١٦٤٠ فلحوا كرم الرب حتى كافأها الله بعد زمن قريب بثمار جنيّة. وعاد الآباء الدومينيكيّون فاشتغلوا مع الآباء اليسوعيين وتوفّرت على يدهم نعم الخلاص في جزيرة المارتينيك وقد اشتهر منهم راهبـان فاضلان ماتا برائحة القداسة الاب پيار پول (بطرس بولس) المتوفّى سنة ١٧٢٧ والاب مَرْتل (Martel) المتوفّى سنة ١٧٤٠ باشرا من الاعمال العجيبة ما لا يفي بتعداده القلم

ولمّا أُلغيت الرهبانية اليسوعيّة سنة ١٧٧٤ اصاب المارتينيك ما اصاب كثيرًا من الرسالات الكاثوليكيّة فانّ الفتنة قلّوا يومًا بعد يوم حتى اصبح اهلها في اسوإ حال. لكنّ الله لم يسلمهم تمامًا فعُني بهم مدّةً ابناء القديس فرنسيس ثمّ عقبهم آباء جمعيّة الروح القدس مع عدد من الاخوة المدرّسين والراهبات وجميعهم اليوم في تلك الانحاء المدارس العامرة والمستشفيات والمياتم وغير ذلك من اعمال الرحمة. وممّا يجدر بنا ذكرهُ انّ المرسلين اوّل من سعى بتحرير العبيد في جزيرة المارتينيك سنة ١٨٤٨ فاستحقّوا بذلك ثناء الاهلين الذين طالما رزحوا تحت عبء الرقّ بين ايدي البيض

*

قلنا ان احدى حاضرتَي المارتينيك مدينة سان پيار فلمّا كانت الرزيّة الاخيرة قد دهمت خصوصًا هذه المدينة فلا نرى بُدًّا من ذكرها مع وصف البليّة التي مُنيت بها

كانت هذه المدينة في اوّل امرها حصنًا ابتناهُ السيور دينَمبوك سنة ١٦٣٥ عند نهر يدعى روكلان (Roxelane) ليستنعوا فيه من غارات الهنود. ثم صار الحصن بعد زمن قليل محطًّا للسلع التجاريّة ومرسًى للسفن الواردة من اوربّة الى ان اضحى بتمادي الزمان مدينةً عامرة لم يقلّ عدد سكّانها في السنة الماضيـة عن ٢٥٠٠٠ فضلًا عمّن يسكنون في ارباضها. وكانت المدينة تُقسم الى ثلاثة اقسام الحصن والمركز والمرفأ.

وحول المدينة عدَّة قرى يرتزق اهلها بزرع قصب السكَّر على انَّ سوقهُ كانت كسدت كثيرًا منذ اخذ الاوربيُّون يستخرجون السكَّر من الشمندر

لما هيئة المدينة فانَّها على شبه نصف دائرة وابنيتها بيضاء يركب بعضُها بعض على شكل الدرجات لها المنظر الجميل مع ما يحدق بها من الاشجار الباسقة والرياض النضرة وفوق رأسها شمالًا الجبل الاقرع الذي دُعي بذلك لقحطهِ الَّا انَّ الاعشاب والنباتات كانت منذ عدَّة سنين تزين صَلَعَهُ بخضرتها. وكان السيَّاح لا يقدمون على سان پيار الَّا يفرغون قنَّتهُ لتقرَّ عينهم من اعلاهُ على مناظر بهجة تأخذ بالابصار وتخلب القلوب

على انَّ هذا الجبل هو الذي اصبح اليوم علَّة خراب سان پيار وآفتها الكبرى. فانهُ من اعماقهِ لفظ تلك القذائف التي دمَّرت المدينة ونسفت مبانيها

وليس هذا البركان جديدًا بل كثيرًا ما انذر الاهلين بالويلات في الاجيال السابقة بيد انَّ غليانهُ كان هدأ وحركتهُ سكنت زمنًا طويلًا حتى ظنَّ الناس انَّ الجبَّار رقد رقادًا ابديًّا. ولكن ساء ظنُّهم فما كان نومهُ الَّا غرارًا

فلمَّا كان ١٦ ايَّار من سنة ١٨٥١ اذ افاق من سِنَتهِ فثار ثائرهُ وسُمع لهُ في بطن الارض زمجرةٌ ملأت الناس هلعًا فتزلزلت الجزيرة ومادت ابنيتها متمايلةً كالسفن السكران وانفجرت القذائف وامتدَّ الرماد في الجوّ ثمَّ انبسط على الحضيض من مدينة سان پيار الى لحف جبل كَرْبت (Carbet) وهو اشبه بكفن سُجّي بهِ الموتى. وكانت الابخرة المتصاعدة من اغوار البركان تكاثفت في الجوّ وترلت على جوانب الجبل كالسيل العرم فازالت ما كان فيهِ سابقًا من الاشجار وجرَّدتهُ عن نباتهِ بتاتًا حتى صار كارض صلعاء ودُعي منذ ذاك الحين بالجبل الاقرع. وفي الوقت ذاتهِ ظهر في مشارف الجبل بحيرة واسعة رائقة الماء كانَّها المرآة في صفائها. امَّا الاهلون فكانوا يهيمون في رجوههم مذعورين لا يعرفون ما يحلُّ بهم ويذوقون الموت الوانًا وتمكَّن منهم الهلع ايَّامًا الى ان تلطَّف الله بعبادهِ وصمت البركان وانقشعت سحائب الرماد فعاد السلام الى قلوب السكَّان وأفرخ روعهم

واخلد اهل سان پيار الى الدعة منذ ذاك العهد حتى نسوا انَّ عدوَّهم لهم بالمرصاد

وربّما اشعرهم حيناً بعد حين ببعض الهزّات (١ كانهُ يقيدهم بلسان حاله انهُ لم يمت وانهُ ينبغي لهم ان يسهروا لئلّا يدركهم ربّ البيت في ساعة لا ينتظرونهُ فيها. بيد انّهم اصمّوا الآذان ولم يبرحوا يسعون وراء دنياهم الّا الصالحين منهم حتى ألبسهم البركان ثوبًا من نيرانهِ. فغاية ما نتمنّى ان يكون هذا الوقيد اضرم في قلوب المنكوبين نار حبهِ تعالى فمحّص عند انفاسهم الاخيرة ذنوبهم وطهّر ادرانهم فنجّاهم من نيران اخرى لا يخطئ سعيرها

وان سأل السائل وكيف جرت هذه الفاجعة اختصرنا لهُ هنا ما كتبهُ احد شهود هذه الرزية الكبرى المفجعة قال ما تعريبهُ: في الأيام الاولى من شهر أيار احسّ اهل مدينة سان پيار باهتزازات متعدّدة لم يحصل منها ضررٌ كبير الّا انّ هذه الزلازل كانت تتكرّر بوقت قريب فقلق السكّان لتواترها لاسيما اذ بانفهم انّ بعض المعامل القريبة من قوهة البركان طفت اليها مواد بركانيّة فابادتها واهلكت كثيرين من عمّالها. وفي اثناء ذلك كان الناس يسمعون في قلب الارض دويًا كهدير الرعد تقشعرّ لهُ الابدان. ولكن ما كان ليدور على خلدهم انّ هذه الاصوات تنذرهم بفاجئة قريبة. وكان والي المارتينيك السيو موته (Mouttet) لمّا بانهُ انّ اهل سان پيار في قلق اسرع قدم الى مدينتهم ليطيّب قلوبهم واوفد رجالًا ليفحصوا الجبل الاقرع والحمأة المحرقة التي سالت من جوانبهِ فما رجعوا الّا بعد شقّ النفس وكادوا يذهبون فريسة النيران. وفي اليوم السابق للسحاب اشتدّ الزلزال في حوالي الجبل الناريّ وتقطّعت القلوس البرقيّة الممتدّة بين المارتينيك والجزء الآخر. غير ان كل هذه الظواهر المخيفة لم تكن الّا مقدّمةً للطامّة الكبرى التي حلّت في صباح اليوم الثامن من أيار.

فلمّا كان ضحى النهار نحو الساعة الثامنة اذ قذف البركان بغتةً كميّة لا تحصى من

---

١) وقد ثبت سابقًا لذوي الاعتبار انّ جزيرة المارتينيك معرّضة للزلازل التي انتابتها مرارًا عديدة. ولعلّ النيران البركانيّة المطمورة في جوفها هي التي عاودتها. ومن الآفات التي اصابت غير مرّة جزيرة المارتينيك الاعاصير الهائلة التي دهتها واوردت بقسم من سكّانها غصصًا منها بالذكر العاصفة الشديدة التي حدثت سنة ١٨٩١ فاخربت جانبًا كبيرًا من فور دي فرنس ونسفت نحو اربعين قرية عامرة. ومن غريب الامور انّ لاهل المارتينيك تقليدًا شائعًا بينهم انّ جزيرتهم سوف يلحق بها الدمار بانفجار بركان الجبل الاقرع

التراب والدخان فحجبت عين الشمس واظلم الجوّ وصارت البلدة كأنها في ليل حالك. ولم يمرّ على هذا بضع ثوانٍ حتى ظهر في الدخان المكفهرّ شبه عواميد من النار خرجت من البركان وانحطّت فوق مدينة سان پيار فصارت شعلة لهيب. وعقب ذلك سقوط قطع كبرى من الحجارة المحمورة قدام سقوطها نحو وبع الساعة. وكان ينزل على المدينة وجوانب الجبل مقدار كبير من الطين الحالك اللزج وهو يغلي غليانًا. وكانت الجرة سامّة من الحامض الكربونيك والحامض الكبريتيّ منتشرة في الهواء تختنق من يستنشقها. قال نوتيّ اسمهُ جان لويس پرودان احد الانفار القليلين الذين تمكّنوا من الخلاص: «سمعنا اوّلًا صوت انفجار هائل كانهُ صوت مدافع عديدة أُطلقت في وقت واحد. ثم رأينا إعصارًا من الدخان والنار خيّم فوق رؤوسنا كجبل عظيم. وكان الدخان كثيفًا سامًّا يحرق اكثر من النار عينها وكان اذا أصيب بها احد سقط ميتًا على القور. ثم رأينا غيمة من النار اكبر من عمود الدخان فاحتلّ على البلدة واحرقها كلها. اما انا فلم اجد حولي غير الموتى. ولمّا وصلتُ بعد الضنك والعناء الى ساحل المدينة وجدت اخلاطًا من الرجال والنساء والصبيان يهيمون في وجههم ويولولون لكنّ الدخان ادركهم فتساقطوا كالذُّباب وماتوا. ولم يَدُم انفجار الدخان والنار الّا ثلاث دقائق امّا المدينة فلهب فيها لسان النار ثلاث ساعات»

وقد أُصيبت بهذا الطوفان الناري السفن الراسية في مرفأ المدينة. ولم يخلص منهُ إلا سفينة انكليزيّة تُدعى رودام لتسارع البحّارين الى قطع اتاجرها الحديديّة واحماء مراجلها بالبخار الشديد إلا انّ كثيرين من اصحابها أُصيبوا بجروح بليغة اذاقتهم مرّ العذاب وقتلتهم وشيكًا. وكانت سفينة اخرى تُدعى إلسك مارّة على خمسة اميال من البلد فغطّاها الرماد رغمًا عن بعدها. امّا عدد القتلى فقريب من اربعين الفًا لم ينج من سان پيار إلا نحو عشرين شخصًا ومن جملتهم سجينٌ كان في مطمورة لقي في حبسه نجاتهُ

على انّ الاخبار الواردة بعد هذا المصاب لا تزال متناقضة. واكثر اهل الجزيرة الناجين كان التجأوا الى فور دي فرنس والى جهات الجنوب ابتعادًا من العدوّ لكنّ الخوف آخذٌ بمجامع قلوبهم ولا يزالون يلحّون على اصحاب الامر فيطلبون منهم ان ينقلوهم الى جزائر غيرها. ولا غرو فانّ القذائف البركانيّة تسقط قريبًا من فور دي

فرنسا وتتهدّدها بالدمار. وما قلناهُ عن سان بيار قد قال ايضاً غيرها من جزائر الانتيل كجزيرة سان قنسان وجزيرة سان توما وغيرها إلّا انَّ عدد القتلى في هذه الاماكن قليل بالنسبة الى قتلى المارتينيك

فبعد هذا الوصف لا يسعنا إلّا ان نرفع الى الله اكفَّ الضراعة طالبين من مراحمهِ تعالى رحمةً واسعة لهؤلاء المنكوبين. وبينا نحن ندوّن هذه الاسطر اطلعنا على رسالةٍ حرَّرها احد التجّار لاخٍ لهُ في مرسيلية هذا تعريبها: انَّ القوم منذ اوّل هذا الاسبوع يتقاطرون الى الكنائس ويقضون صلب نهارهم في الصلاة واعمال التوبة. والكهنة يفرغون جهدهم في تعزيتهم وحثهم على الرجاء في ألطاف البارئ. وفي مساء امس (٦ أيار). فتح الكهنة كلّ كنائس المدينة فبات الناس فيها يصلّون ويثابرون على الاسرار ويسمعون ارشادات الواعظين فكانت اصوات عويلهم ممتزجة باصوات هدير البركان الذي يقذف من فوهاتهِ المتعدّدة دخاناً وناراً. . . ان قُضي علينا بالموت فلنا الثقة برحمتهِ تعالى»

وفي الختام نحيّي اولئك المرسلين رجال الله الذين صرفوا آخر ساعات حياتهم في سبيل اخوتهم لا يبالون بخلاص انفسهم رهم يفتحون ابواب السماء لجماهير التائبين يهيّئونهم للاقاة ربّهم ثمَّ نطلب من قرّائنا ان يذكروا في صلاتهم اخوتهم كاثوليك المارتينيك وان امكنهم ان يسعفوا بمالهم الباقين منهم فلا يبخلوا عليهم بصدقتهم لان الله لا يضيع اجر المحسنين

نظرٌ في الانتقاد

على الكلم اليونانيّة في اللغة العربيّة

لحضرة الاب العالم اللغويّ المتفنن انستاس الكرملي البغدادي

وهو مختصر عن مقالةٍ طويلة كتبها حضرتهُ منذ سبعة اشهر فلم تسمح لنا كثرة المواد من نشرها. . وهذا النظر جواب على انتقاد حرَّرهُ حضرة الكاتب الفاضل الخوري ميخائيل حويس في المشرق (٤: ٧٢ و ٢١٤)

١. الدَّقْشة والدُّقَيْش. انكر حضرة مناظري عجمة هاتين الكلمتين واثبت عربيتهما. واوّل دليلٍ اتى بهِ هو: «لانَّ مدلول الاولى منهما غير مدلول الثانية في المعنى».